صدى الحرية

أسبوعية ثورية اجتماعية
توعوية منوعة

للتواصل وإرسال المشاركات :
Facebook / SadaALhoryeh ** freequd@gmail.com

فريق QMT قدسيا الإعلامي

صدى الحرية | العدد 95 | الجمعة | 20 | شباط | 2015

حلول سريعة أم نهائية

النظام السوري

بين الكلمات والقذائف

غربة الأقلام

الطائرات تطير

الشرق.. بعيداً عن

حلول سريعة أم نهائية في قدسيا؟!

تطورات باتجاه إيجاد حلول للكثير من المشاكل الاجتماعية التي تعيشها مدينة قدسيا هي العنوان الأبرز خلال الأيام الماضية، حيث شهدت عودة "مكتب الشكاوى" للعمل بعد شهرين من توقفه نتيجةً للظروف المحيطة. أما بالنسبة لمشكلة الازدحام على الفرن فهو بدوره يخضع لآلية تنظيمية جديدة، كانت آثارها واضحة، فقد تم تحديد مواعيد معينة لمن يريد الحصول على الكميات الكبيرة من "الخبز" بغرض التجارة في الساعة ال11 ليلاً.

لكن سؤالاً يفرض نفسه، إذا كانت تسعيرة ربطة الخبز من مصدرها 35 ل.س، فلماذا تصل إلى الناس بحدود قاربت ال100 ل.س؟، الإجابة عندما نعلم وجود تجار تعمل خلف الكواليس عبر الوساطة بين بعض البائعين الجوالين والعاملين في الفرن، مستفيدين من تقاسم المرابح الناتجة من هكذا بيع، فيما تستمر المحاولات لتوحيد سعر الغاز الذي بلغ سعره في الآونة الأخيرة حدود ال3500 ل.س، بزيادة الضعف على التسعيرة الرسمية، وما يعقِّد المشكلة هو تواجد تجار الفساد المحتكرين وتعددهم، من حق التاجر أن يربح، لكن من حق الناس أيضاً ألا يلعب بأساسيات ومقومات حياتها.

لقد شكلت تلك العوامل خلال الفترة الماضية آثاراً سلبية على واقع الحياة المعيشية للناس، وأثقلت كاهلهم على الصعيد المالي، وزاد من شعورهم بأنهم يسرقون، من حق الجميع أن يعمل ويتاجر، لكن ضمن حدود مشروعة، وهامشٍ ربحي معقول يراعي ظروف الناس، وإنما تنضبط الأمور بمعرفة أصولها ووضع حدٍ جذري للأصل.

يأتي ذلك بعد تشكيل "لجنة متابعة" وانضمام شخصين جدد إلى لجنة المصالحة.
بينما تبقى مشكلة الكهرباء هاجس الناس اليومي، في ظل الظروف المناخية الباردة، واستمرار النظام بمنع إدخال الوقود إلى المدينة، حيث تراوحت فترات الانقطاع حدود ال20 ساعةٍ يومياً، يخرج النظام علينا في ظل عجزه كل حينٍ بحجة فتارةً تسديد الفواتير وتارةً سرقة العنفات!، في استخفافٍ صارخ بعقول الناس.
إجمالاً الأوضاع الميدانية والمعيشية هادئة في المدينة.

بعد التوتر الذي ساد في الأسبوعين الماضيين عقب الاشتباكات الدائرة بمدينة الهامة، فبالنسبة لتطورات الأوضاع في الهامة فحتى اللحظة الحصار مستمر، دون التوصل إلى اتفاق محدد ينهي هذا الوضع، بالتالي فإن شيئاً لم يتغير، طالما بقي النظام على حاله من خرقٍ للعهود، والعمل وفق منهجية سلطات "الاحتلال".
عملياً حاول النظام فتح ثغرة شقاق بين صفوف الثوار، عبر الدعاية التي خوفت من الإسلاميين التكفيريين أو ما أسمتهم "الدواعش"، وهي رواية عارية عن الصحة كتلك التي ربطت بين تحركات المجاهدين بالهامة والضربات الإسرائيلية التي تلقاها النظام، مستهزئةً ولنسأل من هو صاحب الحق بالرد على "خرق سيادة الدولة".
نية الحرب إذاً لم تكن موجودة، بل هي حالة اعتدنا عليها نتيجة تخوف المناطق الموالية من إرسال أبنائها للجبهات المشتعلة، والخيار الوحيد أمامهم خلق ظروف مناسبة لتبرير هروبهم من مصير الموت.
جميع الإشارات كانت تدلل على ذلك، وتدل بذات الوقت على ضعف هؤلاء الذين ابتعدوا عن كل القيم الإنسانية، واستخدموا المدنيين دروعاً بشرية، عبر استخدام الأبنية السكنية في مساكن البحوث المطلة على الهامة كمتاريس وإحداث طلاقات للقنص باتجاه الهامة منها، مدخلةً بذلك الأبنية المدنية لساحة الحرب، في الوقت الذي انقلبت فيه الصورة في وسائل الإعلام الموالي.
في الجهة المقابلة كانت معنويات المجاهدين وعزيمتهم على خوض المعركة حتى الشهادة قوية، ترافقت مع إذعانٍ لتعاليم الإسلام و الهيئة الشرعية التي فوتت الفرصة على النظام ومنعت بدافع الغيرة على المدنيين إزهاق الأرواح، وسدت باباً كان يمكن أن يتذرع به للعدوان.
في الوقت الذي كان قناص «جبل الورد» يستهدف الأطفال لدى خروجهم من المدارس، وسيارة الإسعاف التي تحمل بداخلها سيدة مريضة، ويتجاهل الإعلام ذلك، مقارنةٌ بين نقيضين ألا تنم عن طائفية النظام، وتنصله من مسؤوليته تجاه "مواطنيه" إن كان يعتبرهم "مواطنيه" أساساً؟.

بين الكلمات والقذائف

نبيل شبيب

إذا كنا لا نملك القدرة على تغيير فوري.. هل نقع في إثم الصمت؟ أحيي عودة "صدى الحرية" إلى الصدور وأتساءل: ما قيمة الكلمة.. والقذائفُ تمزّق الأجساد مع التاريخ والحاضر والمستقبل؟.. ما الذي يمكن قوله إذا كان من يسيطرون على إمكانات الأمّة يفرّطون بها، ولا يقولون ما ينبغي قوله، ناهيك عن التحرّك في وجه الكوارث التي صنعوها وصنعوا معها "عجزهم" وفي مواجهة الأخطار التي يشارك بعضهم في تنفيذ أهدافها الإجرامية؟..

تساؤلات مطروحة باستمرار، تعبّر عن الإحساس بالقنوط وتساهم في نشره، وتوحي بالعجز وترسّخه، وتتجاهل المشهود من إنجاز يحققه العمل، وتكاد تقوّض ما تنجزه الكلمة أيضا. تساؤلات لها ما يفسّرها في واقعنا القائم، وفي مجرى الأحداث والتطوّرات من حولنا، وفي مسلسل الكوارث والنكبات والهزائم التي نعايشها وعايشها جيل سبقنا، ولكن..

إذا كنا لا نملك القدرة على تغيير فوري لهذا الواقع الفاسد من جذوره، فهل نقع في إثم الصمت؟..

لا خلاف في الأصل على أنّ القول دون عمل، مَرَض، يفضي إلى الضياع في الدنيا وربما العقاب في الآخرة، ولكن من المفروض ألا يوجد خلاف أيضا حول القيمة الذاتية للكلمة، فكما ورد في القرآن الكريم الأمر المتكرر بالعمل الصالح، ورد أيضا الأمر بالقول السديد، والصائب، والحق، والطيب، والصادق، ولقد بدأ البناء الأول للمجتمع الإسلامي في العهد النبوي بالكلمة، مع الإعداد لِما هو أبعد من الكلمة، ومع الاستعداد لتحمل تبعات الكلمة وكثيرا ما كانت سببا في الملاحقة والتعذيب والحصار.

إنّنا نعيش في حقبة زمنية هي حقبة تحوّل في حياة المسلمين، تحوّل من وضع تردّى فيه المسلمون إلى الحضيض، إلى وضع نرجو أن نخرج منه على طريق يوصل المسلمين إلى امتلاك قدر من الطاقة الذاتية يكفي لمواجهة المخاطر المحيطة بهم من كل جانب، وصدّها، ويستطيعون معه أن يواجهوا القوة العسكرية بالقوة العسكرية، والعدوان الإجرامي بالردّ المناسب له وفق تعاليم الإسلام.

في هذه المرحلة بالذات، لا يمكن أن نستغني عن الكلمة الصائبة السديدة المعبّئة للطاقات، ومن يستغنِ عنها يستغنِ عن جزء من الحديث الصحيح المشهور عن تغيير المنكر.

لا يعني ذلك أن نقول للقادرين على صنع ما هو أبعد من الكلمة ألاّ يصنعوه، ولكن يعني فيما يعني ألاّ نلوم أحدا على عدم صنع ما لا يستطيع صنعه الآن أصلا، ففي ذلك تثبيط للهمم بدلا من تحفيزها، ونشر للتشاؤم من إمكانات التغيير المتوفرة بدلا من التفاؤل بها، إنّما المطلوب أن ندفع بعضنا بعضا إلى الإعداد، ليمكن لنا أن نصنع غدا ما لا نستطيع صنعه اليوم، ومن السبل إلى ذلك الكلمة الواعية الراشدة المرشدة.

إن الله عزّ وجل خاطب المسلمين بالكلمة وهم في مرحلة الهزيمة قائلاً: (وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) فلنخاطب المسلمين وهم يقدمون ما يستطيعون هذه الأيام بالكلمة القرآنية وما تقتضيه من إعداد، ومن وجوه الإعداد، بل من أسسه الأولى ما يكون بالعلم، والتربية، والتوعية، والتخصص، وجميع ذلك ممّا لا غنى عن الكلمة لتحقيقه، فضلا عن واجب مواجهة القوة بالقوة، والذي يمكن أن يكون، ويجب أن يكون، ولكن من المؤكّد أنّه لا يتحقق بمجرّد الحديث عنه والدعوة اللفظية المجرّدة إليه في منتديات ولقاءات، الأصل فيها هو حوار الكلمة، إنما له مواقعه الأخرى، وميادينه الأخرى.

نريد التغيير، ولكن يجب أن نستخدم جميع أسباب التغيير، قولا وعملا، ونريد النصر، ويجب أن نوجد له كافة أسباب النصر، فلنتعاون في ميدان الكلمة، ولا نغفل بإذن الله عمّا نستطيع في ميدان العمل والبذل والعطاء.

الطائرات تطير

الطائرات تطير من الغرف المجاورة إلى الحمام..
الطائرات تطير
والأشجار تسقط
والمباني تخبز السكان
فاختبئي بأغنيتي الأخيرة
أو بطلقتي الأخيرة يا ابنتي..

قد تصلح الأبيات السابقة من قصيدة" مديح الظل العالي "للشاعر" محمود درويش "كمدخلٍ يصلح لشرح جزءٍ من صورة الحياة في الداخل السوري.

لا تكف الطائرات بمختلف أنواعها، وجنسياتها عن التحليق، وإلقاء حممها وقنابلها على السكان.

قبل عدة صباحاتٍ تغير مشهد السماء، دخانٌ أبيضٌ دائريٌ، متعرجٌ ارتسم في الأعلى، هي نفس الخطوط التي اعتدنا مشاهداتها أيام الصبا في سماء ريف دمشق الغربي، كانت بلا شك للطائرات الإسرائيلية التي عرفناها جيداً، والتي اعتادت القيام بنزهاتها الصباحية في أجواء الممانعة السورية ـ اللبنانية.

الطائرات الإسرائيلية عادت لأجوائنا من جديد، لكن هذه المرة لم تكن وحيدةً، فطائرات النظام التي لم تكد تترك مكاناً لم تزره ببراميلها، وصواريخها، تلازمها أيضاً، وإن كانت لا تستطيع التحليق بمحاذاتها وعلى نفس علوها، كما تصحب تلك الطائرات، طائرات أخرى للتحالف الدولي، والتي تلقي بدورها أطنان القذائف والمتفجرات على مناطق شمال، وشمال شرق البلاد، وكان أن أصابت'' صواريخها الذكية ''عديد المرات مدنيين، وأطفالاً سوريين.

قد تتمثل المفارقة الكبرى اليوم بأن الطائرات الإسرائيلية هي الأقل خطراً على السوريين، فوجودها في الأجواء لا يدفعهم للشعور بالخوف، ويبدو أن بعض انطباعاتهم وأفكارهم السابقة عنها قد تبدلت، هذا لا يعني أن إسرائيل لم تعد تشكل تهديداً أو خطراً، أو أنها لم تعد دولةً معاديةً، فهي لا زالت، وربما ستبقى كذلك، كل ما يعنيه ذلك ببساطة، أن الخطر المباشر على حياة السوريين وأرواحهم ليس مصدره إسرائيل، فطائراتها ـ الآن على الأقل ـ لا تستهدفهم، ولا تقتلهم، ذلك أن طائرات'' نظامهم ''تتكفل بموتهم، وكانت طائرات النظام قد نالت شهرة سابقة من سقوطها في معارك لبنان، في ما عُرف بيوم مجزرة الطائرات، حينها لم يتبق من الأسطول الجوي السوري إلا عشرات الطائرات القديمة التي يسخرها النظام اليوم لإلقاء براميله، وكم يتمنى كثيرون ـ وأنا منهم ـ لو خسر النظام آنذاك أسطوله الحربي كله.

هل شعور كهذا يعد نوعاً من الخيانة؟ هل فقد السوريون غيرتهم الوطنية؟

الحقيقة، إن الإجابة على هذا السؤال ليست هينةً، فالإشكالية التي يطرحها تحمل تعقيدات مركبة، خصوصاً في ظل الظروف الراهنة، وهذا ما يجعل طرحه، بهذا الشكل البسيط، ومحاولة الإجابة عليه بصورة قاطعة، أمراً يحمل نوعاً من الاستسهال غير المقبول ولا المبرر، فلا يمكن مسائلة'' مواطنين ''يواجهون الموت، والتشريد، والجوع، والبرد منذ أكثر من ثلاث سنوات، بسبب حربٍ عدوانيةٍ إجراميةٍ يخوضها ضدهم'' جيشهم الوطني''، ويستعين عليهم بالمرتزقة والمليشيات الأجنبية، بعدما فتح'' نظامهم الوطني ''البلاد وأجواءها أمام كل أنواع التدخلات الدولية والإقليمية لتبرير مجازره، وفوق ذلك رهن ما تبقى من اقتصاد مقابل الاقتراض لتمويل حربه، عن عدم خوفهم من طائرات إسرائيلية لا تقصفهم، ولا عن ضعف شعورهم ب''الانتماء''، ولا عن برودة مشاعرهم ''الوطنية''، والتي قد لا يوجد مبرر لها بالأساس، فلطالما كان معنى'' الوطن ''في ظل النظام الشمولي مختصراً في شخص'' الرئيس ''وعائلته، ولطالما اختُزل مفهومه بباقة من الكلمات المرسلة الخالية من أية قيمة أو مضمون، كالأرض، والعَلَم، والجيش، وغيرها.

لم يكن للوطن عند السوريين في يومٍ من الأيام أي مفهوم حقيقي بالمعنى السياسي، أو الاجتماعي، ذلك أن الوطن قبل أن يكون أرضاً، ودولةً، هو مجموعة بشرية) شعب(، مجتمع من أناس يعيشون معاً ويتمتعون بالسيادة، تجمعهم علاقات، وروابط، وآمال، وأحلام، وتوحدهم تطلعات، ورؤى، وأهداف مشتركة، يحكمهم ‘‘عقدٍ اجتماعي ’’ينظم شؤون حياتهم، ويؤطر علاقاتهم في ضوء القانون، وعلى أسس الحق والواجب والمسؤولية، فيختارون به شكل الحكم، والنظام الذي يناسبهم، ويحددون الأدوار والوظائف التي ينبغي على سلطاتهم تحقيقها، ويقررون الالتزامات والضمانات والجزاءات التي تضمن الوصول لتلك الغايات، لكن السوريين لم يتحصلوا على شيءٍ من ذلك سابقاً .

العواطف، والمشاعر لا تكفي لإنشاء‘‘ العلاقات الوطنية’’، وتأسيس الدول، فالوطن ـ الدولة لا يقوم بالدرجة الأولى إلا على أساس المصالح المشتركة لمجموع‘‘ المواطنين’’، وفي إطار القانون والمؤسسات، وعلى مبادئ كالحرية، والعدل، والمساواة، والتوازن في توزيع الموارد والثروات، وغيرها، وبموجب نظام يحدد السلطة ويضبط علاقاتها، ويقنن استخدامها للعنف والقوة، وفي غياب هذه لن تنفع النظريات، والحكايات، والأشعار، والأغنيات‘‘ الوطنية’’، ولا يجوز محاسبة أحد على فقده لما يسمى ب‘‘الانتماء الوطني.’’

قبل الغارات الإسرائيلية الأخيرة على مطاري دمشق، والديماس، ذرعت طائرات العدو سماء الوطن لأيام، دخانها الأبيض بقي ساعات معلقاً في الجو، وفي صباح اليوم التالي للغارات، كان جيش‘‘ الوطن ’’مستمراً بقصف المدن، فيما استبدلت إذاعات‘‘ الوطن ’’الرسمية والخاصة فقرات الأبراج، ونقاشات المذيعات الصباحي التافه، بالأغاني الوطنية العظيمة، كأغنية‘‘ حماك الله يا أسدُ) ’’بعد نزع صوت المطربة" أصالة "منها(، كنوعٍ من الرد على العدوان، ربما، أو على سبيل إظهار شعور شعبنا ب‘‘التلاحم الوطني.’’

وبعد أيام عادت الطائرات الإسرائيلية للتحليق‘‘ فوق سقف الوطن’’، في الوقت الذي كان أبناؤه المؤيدون، والمعارضون، و‘‘المحايدون ’’يشتبكون على صفحات التواصل الاجتماعي بسبب‘‘ العلم الوطني ’’الذي لم يُرفع في برنامج" أراب أيدول"، قال بعضهم كان يجب رفع العلم الأحمر ذي النجمتين، وقال آخرون لا بل الأخضر ذي الثلاث، وربما فكر غيرهم بالعلم‘‘ الأسود ’’عديم النجوم..

وكأن للعَلَم قيمة عندما يغيب الوطن، ويموت أبنائه، ويُعتقلون، ويشردون..

الطائرات الإسرائيلية تواصل التحليق فوقنا، وطائرات النظام لا تزال تقصف، وفي رأسي تسقط كلمات " محمود درويش "محورة :

الطـــــــــائرات تطير
والبراميل تســـــــــقط
والبنايات تخبز الســــكان
فلا تخافي الموت يــــا ابنتي..
وفي أعمـــاقي تتفجر معانٍ:
كم كنت وحدك يا ابن أمي
يا ابـــــن أكثر من أبٍ
كم كنت وحــــدك ..

النظام السوري ونبي الله سليمان (عليه السلام)

إياس غالب الرشيد

في لحظة من لحظات الاستبطان العميق، كنت أتفحص مواطن قوة النظام السوري المتبقية ...

الوضع الداخلي : حالة ثورة تجتاح كل المناطق السورية، وتمرد ضد النظام، لم يعرفه تاريخ سوريا الحديث، الوضع الاقتصادي متوقف تماما، بل منهار، صورة النظام الخارجية في الحضيض، حيث ردد جميع ساسة العالم عبارة : النظام السوري يقتل شعبه ،وعليه الرحيل ، الجيش السوري في حالة تفكك ، ويخشى من انهياره بوصفه مؤسسة عسكرية ضامنة في أي لحظة ،والأهم من ذلك كله أن النظام لم يستطع استعادة زمام المبادرة، وتقديم رؤية سياسية واقتصادية ذات صدقية ،وقابلة للحياة.. إذا... ماذا بقي؟ وماذا يحدث؟ ولماذا لم يسقط النظام حتى هذه اللحظة ؟

في الحقيقة النظام –بحسب تصوري – سقط منذ شهر آذار 2011؛ شهر اندلاع الثورة، وهذا السقوط كان مع خروج أول مظاهرة ،بل مع أول هتاف ضد النظام، وليس مع سقوط أول شهيد ؛ لأن انطلاق الهتافات هو نتيجة لسقوط الشهداء، وليس العكس ، ولأن الهتاف هو موقف سياسي واقتصادي واجتماعي من النظام ، وهذا الهتاف أصبح عاما على مستوى سوريا ،تغيرت مفرداته بحسب المناطق ،ولكنه يحمل الروح نفسها، والمعنى العميق نفسه .

ولكن ما وجه الشبه بين النظام، وبين نبي الله سليمان عليه السلام ؟؟

في الحقيقة لا وجه للشبه البتة ،ولكن حالة الاستبطان العميق جعلتني أستدعي موقفاً في سيرة نبي الله سليمان، وهو حكمه على الجن بالعمل على بناء بيت يُعبد الله فيه، وكان من عادة النبي سليمان، أن يقف أمام الجن حتى لا يتكاسلوا في العمل ، ولكن سليمان عليه السلام مات ،وهو متكئ على العصا ،ولم تعلم الجن به، وظل واقفا، وهو يتكئ على العصا ،حتى أتت الأرضة على العصا ،فسقط ، فأسرعت الجن والإنس إليه فوجدوه ميتاً، وأدركت الجن أنه مات منذ فترة طويلة، ولو كانوا يعلمون ذلك لما استمروا في حمل الحجارة وبناء البيت ،وبعد ذلك انقطعوا عن خدمته، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾

إن وجه الشبه هو حالة الموت ،والجن: هم مرتزقة النظام من شبيحة ،وأمن ،وجنود، ومؤيدين، ومنحبكجية، وتجار، وصامتين، ما زالت عيونهم شاخصة إلى النظام المنتصب في قصر الشعب؛ متكئ على عصا القمع، ولكن هذه العصا تآكلت منذ أول هتاف ، وستهوي قريباً ..ولكن الله –سبحانه وتعالى- حكم على هؤلاء الحمقى أن يلبثوا في العذاب المهين حتى حين، وحتى ينسوا تماماً كل لحظات اللذة السادية؛ التي عاشوها؛ وهم يدوسون هذا الشعب ،ويستبيحون حياته وأرزاقه، حكم عليهم أن يظلوا في الشوارع، يعانون من الثالوث الأسود ؛ الجوع، والبرد، والظلام ،يهرولون خلف الفتية المتظاهرين، من زقاق إلى آخر، لا يعرفون إلى الراحة سبيلاً ، والخوف يفترس روحهم المتوحشة. وهم يعولون على أبي حافظ والثوار يعولون على الله سبحانه وتعالى .

إن هذه الأشهر الطويلة؛ التي قضاها الجن(الشبيحة والأمن) في مطاردة الثوار ،ثم التربص خوفاً من انقضاض الجيش الحر عليهم لهي قمة العذاب ،الذي ينالونه من الشعب ،الذي ساموه سوء العذاب سنين عدداً ...

نبي الله سليمان مات ، وانتقلت روحه الطاهرة إلى الملكوت الأعلى، مات واقفاً، شامخاً، بعد أن نشر العدل والخير والإيمان في مملكته ، أما هذا النظام مات متعفنا متفسخا في حالة الوقوف بعد أن نشر الموت، والفقر، والذل، والعدمية ، واللاشيء ، وما زال أنصاره غارقين في عذابهم، ولو أدركوا أنه مات لكانوا أول الفارين من العذاب المهين.

غربة الأقلام

صوت الأمواج والموسيقى الفرنسية الكلاسيكية تطاردني وكأن الثمانينات من القرن الماضي لم تكن إلا حلماً، حلماً لم يصنع مني ذاك الرجل العربي، بل ذلك الحالم، والكاتب في زمن الصمت، يومها كان الشباب شغوفاً بالحديث عن الحب، لكن قلمي ظل يبحث عن شواطئ غير تلك المرئية، رغبةٌ قويةٌ بالبوح، وأخرى تدعو للصمت... بعض الأحلام إن بقيتَ على إصرارك عليها تتحول إلى واقع، الصمت أقربُ إلى نفسي في تلك الآونة، سرعان ما عرفتُ أنه خيار الضعفاء... ويقيناً اكتسبتُ شيئاً يحتاجه الكاتب ولا يمكن أن يستمده إلا من سنوات السكوت المعلن، فيما يضمر البوح لورقة... ولبعض من يثق بهم... وأمام إغراء القلم ومع موسمٍ شتويٍ ظنه البعض ربيعياً أعلنت انضمامي لحزب "محبي الكلمة"، بالرغم مما يمكن أن تحملني من مرارة.
سنوات الثورة جعلتني أراجع فترةً مضت من تاريخ حياة الكتّاب... والتبدلات كبيرة وعميقة بين مرحلتين، فقد كانت الكتابة ذات يومٍ أخطر مهنة، والتفكير تهمة، حتى أنه يشترك مع التكفير في كل حروفه ويبدو أمامه مجرد زلة لسان. يومها كنا نحلم ألا نموت بسبب ما نكتب... نخاف يد الرقيب، اليد التي تنبش بين سطورنا، تبحث عما وراء الكلمات، تراقب صمتنا كما تراقب أنفاسنا، أما بعد الثورة... فالغريب أن ليس ثمة مقاييس جديدةٍ للكتابة!!
"لماذا الإصرار إذن على التفكير والكتابة؟"، أسئلةُ اليأس التي عايشناها حين شعرنا بأننا لسنا بحاجةٍ لوطنٍ أذلنا، وطنٍ المبدع فيه لا يصبح مواطناً إلا عندما يموت... وطنٍ ينفي ويعتقل مثقفيه، ألا يكفي هذا مبرراً لنحلم أن نغادره، لنتمكن من البوح ورفع الصوت بلا خوف... الغربة تفتح لك باب الحرية، بينما يقتلها الوطن، حتماً الوطن لا يقتل أبنائه، هناك دائماً يدٌ تمتد لتضع الأغلال وتخرس الحروف، وبررنا لأنفسنا الصمت طويلاً أمام قامتها الكاذبة، والثورةُ عادت لتفقد مفكريها وانسحابهم بأسلوبٍ يكاد يشابه طريقة اللصوص حين يضطرون للهرب.
قد تختار الغربة، الغربة هنا هي بابٌ لنزيفٍ فكريٍّ أصاب بلادنا، لقد فقدنا في سوريا خلال السنوات الأخيرة الكثير من الإعلاميين والمفكرين موتاً واعتقالاً وهجرةً. أي أنه خلال مدةٍ قليلة لن تجد كاتباً واحداً ينطق ويكتب ويحلم ويفكر باسم السوريين.
وتولد الرواية بنكهة الألم على شواطئ الغربة، في المنافي القسرية أو الاختيارية. موزعة على الخرائط العربية والغربية... المجبرون على الرحيل مازالوا يحلمون بالعودة... يكتبون عن وطنٍ تاه منهم عند هروبهم منه خوفاً واضطراراً....
اختاروا المهجر، بعيداً عن وطنٍ فرغ ليتبعثر كتّابه ومثقفوه بين المقابر والمنافي ليواصلوا الميراث التراجيدي للكتابة العربية, وينضمّوا للشتات الفلسطيني والعراقي.. والشتات غير المعلن لأكثر من بلدٍ عربي, تنفى منه شعوب بأكملها, وتنكسر فيه أجيال من الأقلام إكراماً لرجل أو لحفنة من الرجال... إنه حقاً زمن الشتات فحتى الثورة لم تلم حتى اليوم ذاك الشعث.
فلماذا تكتب؟ ولمن؟ وكيف يمكن فضّ الاشتباك هذا؟ وهل المنفى هو المكان الأمثل لطرح تلك الأسئلة الموجعة أكثر من أجوبتها.
قد تختار الحيادية... لتكتشف عند عودتك لإنسانيتك أنه لا يمكن للكاتب وثورة الحق مشتعلة أن يقف على مسافةٍ وسطيةٍ بين القاتل والقتيل، وإلا لم تكن مهنياً حراً ينافح عن الحق، بل لست إنساناً.
الكاتب... الإعلامي ... الروائي...
جميع هؤلاء يشتركون في صياغة فسيفساء لوطنٍ حلمنا به، فكيف يمكن الفرار منه، في لحظة مخاضه، وما فيها من عذاب؟ الحيادية.. الرحيل.. تشويةٌ للتاريخ والأدب وحضارة أمة ما لم يكن لنا دورنا في المهجر يؤدي بالضرورة للتواصل مع الداخل.

صدى الحرية | العدد 95 | الجمعة 20 | شباط | 2015

الشرق... بعيداً عن أفلام لورنس العرب وصدام حسين

ل.ن

بعيداً عن هوس التكنولوجيا وأفلام الأكشن، ما الذي عرفناه عن الغرب حقاً، في تفاصيلهم البسيطة وحياتهم المعيشة، هل ما سمعناه وشاهدناه من إباحيات معلنة وحياة لا يحكمها ضابط، هو ما يمثلهم فعلاً أم كان حصيلة ما وصلنا عبر وسائل الإعلام؟

يرى كثير من الباحثين والمترجمين أن العلاقة بين الشرق والغرب لم تكن يوماً بمنأى عن مصالح وأهداف سياسية، خضع لها كل ما سواها، فلم نعرفهم حقاً ولم يعرفونا يوماً، للأسف ساهم هذا الجهل في عمق الفجوة، في قضايا كثيرة، أبرزها القضية الفلسطينية، النموذج الأكثر إيلاماً للعرب.

بالطبع استطاع الغرب أن يكون دخيلاً في الشرق عبر منافذ كثيرة منها المساعدات الإنسانية والبعثات الدراسية والاستكشافية، ومن عرفوا بالمستشرقين، ولم تكن النوايا سيئة دائماً أو العكس، لكنها لطالما كانت لغايةٍ ما، وهذا لا يفترض السوء أيضاً، أولئك نقلوا مشاهدات وانطباعات، رسمت صوراً لنا.

ولا ننسى بطبيعة الحال قوافل المستعمرين التي استمر بعضها لفترات زمنية طويلة، كانت تدخلاً مباشراً وعميقاً في الشرق، بعيداً عن الخوض في تفاصيل لا نهاية معروفة لها، ومع أن الدراما والسينما العربية قدمت الكثير عن حقبات المستعمرين، لكن أياً من ذلك لم يفلح في تغيير شيء مما فعله الغرب، على الأقل سياسياً في الخارطة العربية، أما ما أتحفتنا به سينما الغرب، فلم يخرج عن إطار الصورة القديمة، العرب أبناء الصحراء، بجهلهم وغبائهم، الرجال سفاحون بالضرورة، والنساء جميلات بالضرورة أيضا، وفي السنوات الأخيرة كان العربي إرهابياً بلحية كثيفة ونفس حاقدة، تالياً يمكن أن نتوقع ما الذي يعرفه الغرب عنا!.

لكن ماذا يعرف الغرب عن الثورة في سورية؟، تلك قصة أخرى، كونها تجاوزت في مآسيها وفصولها كثيراً من الحدود، وإن كان ذلك لا يعني أن الغرب مدرك لحقيقة الوضع، ففي كثير من الأحيان تجري الرياح بما لا تشتهيه السفينة، مع كل ما بذله وحققه مراسلو الثورة وصحفيوها وكتابها، نشط على الضفة الأخرى آخرون، توفرت لهم إمكانيات ودعم غير محدودين، هؤلاء ساهم في حرف البوصلة عن اتجاهها، فلم تكن الصورة واضحة لدى كثير من دول الغرب، بعضهم لم يسمع حتى اليوم بما يجري، وهناك من يكتفي بما بات معروفاً عن الإرهاب والتطرف، لا سيما مع ظهور داعش وما شابهها، وهنا لا يمكن أن نتجاهل مخاوف الغرب الكبيرة منها.

الغرب يعنينا كما نعنيه، بمصالح سياسية واقتصادية وثقافية، وبغيرها أيضاً، وإذا كنا نجهل الكثير عن بعضنا، فلا شيء يمنع من أن نبدأ بصياغة جديدة لعلاقتنا، ولتكن سورية بداية عبر فضائيات وترجمات توضح للآخر كل ما تشوه في ذهنه، فلم يعد خافياً أن النظام يستند على دعم غربي يفوق أهمية، كل ما يتباهى به على أرض الواقع السوري.

كاريكاتير العدد